﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَـن لـم يتَّعـظ بـالإرشـادِ اتّعـظَ بمُشاهدةِ نوازلِ العباد

لمّا ذكَرتِ الآيةُ السّابقة جَرَيانَ سُنَّتِه في تَعْذيبِ المُكَذِّبينَ، وأنَّ مِن شأنِها أنْ لا يكونَ لها تبديلٌ ولا تحويلٌ؛ ناسبَ الانتقالُ إلى بيانِ وقوعِ سنَّةِ الأوّلين في العبادِ، فأرشدَهم إلى استحضارِ ما عرفوه من أسفارِهم وترحالِهم، فهو انتقالٌ من باب التَّهديدِ في إيقاعِ العذابِ اعتبارًا ممّن مضى، إلى باب الاعتبارِ برؤيةِ العذابِ الواقعِ على مَن مضى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسِيرُواْ﴾: أصل (سير) يدلُّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ؛ يُقال: سارَ يسيرُ سيْرًا؛ وذلك يكونُ ليلًا ونهارًا، يُقال: سرتُ، وذلك نحوُ قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾، وسرتُ بفلانٍ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص: 29]، وسيَّرْتُه على التَّكثير؛ وذلك نحوُ قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، فمعنى السَّيْرِ في الآيةِ مَحْضُ المُضيِّ في الأرضِ؛ بقرينة قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1].

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أصلُ (عقب) يدلُّ على تأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، وكلُّ شيءٍ يَعْقُبُ شيئًا فهو عَقيبُهُ[2]، والعاقبةُ: آخرُ الأمرِ، وأثَرُ عَمَلِ العامِلِ[3]، قال الرّاغبُ: العاقبةُ والعُقْبى يختصّانِ بالثَّوابِ، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد يُستعملُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سير)، والراغب، المفردات: (سار).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - أ/ 92.

في العُقوبةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][1]، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها تتلو الذَّنْبَ، والجَمْعُ: عُقوباتٍ[2]، والمقصود بالعاقبةِ هنا: آخِرُ الأمر ونهايتُه، أي: آخِرُ أمْرِهم كانَ عقوبةً.

3) ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾: أصلُ (عجز) يدُلُّ على الضَّعْفِ، ومنه العَجْزُ نقيضُ الحَزْمِ[3]، ويُقال: أعجزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتَ عن طلَبه وإدراكه[4]، ولن يُعْجِزَ اللّهَ تعالى شيءٌ، أي: لا يَعْجِز اللّهُ سبحانه عنه؛ متى شاءَ[5]، فالعَجْزُ: الضَّعفُ أوْ عدَمُ القُدرة، ومعنى: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ هنا: يجعلُه عاجزًا عن تحقيقِ مُرادِه فيه؛ فيُفلِتُ أحدٌ عن مُرادِ اللّهِ منه[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في التّاريخِ عِبَرٌ وفي الأمكنةِ عظاتٌ لمَنْ تأمّلَ في الخَلَوات

تحضُّ الآيةُ الكريمة العبادَ على السَّيرِ في الأرضِ، والاعتبارِ بأحوالِ المُهلَكينَ السّابقينَ؛ فيَنظُروا كيف كان عاقبةُ كُفّارِ الأُمَمِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِنَ العذابِ؛ بسَبَبِ ذُنوبهم، فيَخافوا ويَحذَروا من أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم؟ وكان كُفّارُ الأُمَمِ السّابقةِ أشَدَّ مِن كُفّارِ قُرَيشٍ قوّةً، فعذَّبَهم اللّهُ بسَبَبِ ذُنوبهم؛ فلن يَتعذَّرَ على اللّهِ إهلاكُ كُفّارِ قُرَيشٍ كما عذَّب أولئك، وإذا أراد اللّهُ إهلاكَهم أوْ فِعلَ أيِّ شَيءٍ في السَّماواتِ أوْ في الأرضِ فلن يُعجِزَه ذلك؛ لكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَتعذَّرُ عليه أمرٌ[7]، فينبغي على العاقل أنْ ينظُرَ إلى عاقبةِ السّابقينَ نَظَرَ

(1) الراغب، المفردات: (عقب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(4) الخليل، العين: (عجز).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 396، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 560، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 692.

اعتِبارٍ بمآلِهم حينَ كَذَّبوا رُسُلَهم، وليس اعتبارًا بقوَّتِهم وصِناعتِهم وطِرازِهم، وما أشْبَهَ ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام وغرضُهُ:

الاستفهامُ يحتملُ التّقريرَ والإنكارَ

الاستفهامُ في صدرِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للتَّقرير؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ثبوتَ السَّيْرِ، ويُلزِمُهم بالاتِّعاظِ بما شاهَدوا من آثارِ هلاكِ الماضينَ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تحذير وتهديد، وهذا يناسبُه السَّيْرُ والوقوفُ على ثماره[2]، أوْ للإنكارِ والنَّفْي عندَ مَن يجعَلُ (الواوَ) عطفًا على مقدَّرٍ بعد الهمزة؛ فالمُنكَرُ بالاستفهامِ هو المعطوفُ عليه.

تعيينُ موقعِ المعطوفِ عليه:

تحتملُ الواوُ العطفَ على مذكورٍ أوْ محذوفٍ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعطف، وقد عطفتْ ما بعدَها على جملةٍ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾؛ للاستدلالِ على أنَّ مُساواتَهم للأوَّلينَ تُنْذِرُ بأنْ سيحِلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك مِن نوعِ ما يُشاهدونه مِن آثار استئصالِهم في ديارهم، والهمزةُ مُقدَّمةٌ مِن تأخيرٍ، وفي عطفِ الاستفهام على الاستفهام ترقٍّ في الجدال؛ إذِ الاستفهامُ الأوّلُ نفيٌ في صورة الاستفهام للتّفكيرِ في حالهم، وماذا ينتظرونَ بعدَ التكذيب؟ والاستفهامُ الثّاني إلزامُ الحُجَّة بما رأَوْهُ من آثارِ السّابقين، فلا حاجةَ إلى التّفكير؛ لأنّهم قد عاينوا ذلك، ويجوزُ أنْ تكون (الواو) للعطف على مُقدَّرٍ بعد الهمزة يليقُ بالمقام؛ فالهمزةُ في مكانها والاستفهام إنكاريٌّ، أي: أَقَعدوا في مساكنهم؛ ولم يَسيروا في الأرض؛ فينظروا كيف كانَ عاقبةُ الَّذين مِن قبلهم؟![3].

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن - سورة فاطر، ص: 317.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 314 - 315.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 207.

نكتةُ استعمال مفردة (السَّيْرِ) مادَّةً وصيغةً:

السّيرُ في الأرضِ تـأمُّـلٌ وتـدبُّـر لا مـجـرَّدُ مـشيٍ وانتقال

جاءَ استعمالُ مفردة (السَّير) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنّه أبلغُ مِن مرادفاته نحو: المَشْي والسَّعْي والجَرْي في الدّلالةِ على التَّعرُّفِ على آثار الهالكين؛ لأنَّ السَّيْرَ فيه معنى التَّوغُّلِ في الشّيء والامتدادِ فيه؛ فينتُج عنه التَّعرُّفُ عليه أوْ على شيءٍ يُلابسُهُ ويُصاحبه بقوَّةٍ؛ ووراء هذا مِنَ المعنى أنَّ سيرَهُم في الأرضِ كان جديرًا به أنْ يُعرِّفَهم بمولاهم؛ عن طريقِ الاعتبارِ بآثارِ الهالكينَ السّابقينَ؛ لأنّهم قطعوا به مسافاتٍ طويلةً وكثيرةً، ونظمُ السَّيرِ فعلًا مضارعًا ينبِّه على كثرة هذا السَّير منهم وتَكرارِه؛ فقد أقاموا الحُجَّة على أنفسِهم.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّة:

المُكنةُ في السَّير نـعـمـةُ الـلـه في سُبُلِ العبادِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للإشعارِ بنعمة الله عليهم؛ حيثُ مكَّنَهُم مِنَ السَّيْرِ في الأرضِ سيرًا طويلًا كثيرًا، وجعلَهُم يتعرَّضون لآثار الأُمَم السّابقةِ، ويتعرَّفون على كثيرٍ مِن دفين أسرارِهم، وللإيماءِ إلى أنَّ الأرض واسعةٌ فسيحة، فمنْ ولجَ في ثناياها، ودخل في طُرُقها وسُبُلها رأى العجَبَ العُجاب، وللتّنبيهِ على أنَّ المطلوبَ هو التّعمُّقُ في النّظر، لا مجرّدُ النّظَر العابر، ومنَ المعلوم أنَّ السّيرَ يكونُ على الأرض وليس فيها، فيكونُ ذلك استعارةً تصريحيّةً تبعيَّةً؛ بتشبيهِ مَن يسيرُ على الشّيءِ بمَن يسيرُ في داخلِه؛ للدّلالة على المتابعةِ الشَّديدة لِما حوله حتى كأنَّه يتابعُ ما يكونُ في جوفِ الأرض، ولا يكتفي بما عليها.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

شـأنُ النّـاظرين المـعـرفـةُ وشـأنُ المارّينَ المَهْلَكةُ

التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد الذِّهنيّ؛ ويجوز أنْ يكونَ للعهد الذِّكري؛ إذ قد ذُكِرت في قوله تعالى في الآيةِ السّابقة: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للإيماءِ إلى

أنَّهم جمعوا بين السَّيرِ في الأرضِ والاستكبارِ فيها؛ وشأنُ مَن يسيرُ في الأرضِ، ويعرف أحوالَ أهلها الأوَّلين والسّابقين أنْ يبلغَ الهُدى، ويعرفَ الحقَّ فيلزمهُ، وأفاد تشخيصُ الأرض مع أنَّ السّير يكونُ عليها تأكيدَ المقصودِ من سَيرهم وهو الاعتبارُ والنَّظر، وليس مجرَّدَ السَّير من دون تفحُّصٍ للمكان الذي يَسيرونَ عليه، فكانَ التَّقييدُ بذكرِ الأرضِ مناديًا على نكتةِ ذكرِه؛ ونكتتُه تبكيتُهم على عدم اعتبارِهم مِمّا شاهدوا ورأَوْا؛ باستحضارِ ما ساروا فيه، وما شاهدوهُ من آثارِ السّابقينَ، واستحضارِ سَعَة الأرضِ في أذهانِهم، وأنهم ظلّوا مخفوضينَ بعدم إعمالِهم عقولَهم فيما رأوا، فلم يَرتقوا بسَيرهم في الأرضِ، وإنَّما ظلّوا مُلْتصِقينَ بها؛ ملتصقينَ بأسباب الجهلِ والضَّلال!!

نوعُ الفاء ومعناها:

غـايـةُ الـسّـيرِ النّظرُ والاعتبارُ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ للعطف والسببيَّة؛ أي: فيتسبَّبُ لهم عنِ السَّيرِ في الأرضِ النَّظرُ المذكورُ؛ وهذا إرشادٌ إلى ضرورةِ النَّظَرِ في الأرضِ؛ لتحقيقِ الاعتبار، كما أفادتِ (الفاء) أنَّ مجرّدَ السّير في الأرض يؤدّي إلى تحقيق العظةِ والاعتبار؛ إذِ الفاءُ تفيد التّعقيبَ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في لفظِ النَّظَرِ:

التَّـنـبـيـهُ على الـغـايـاتِ بـذكـرِ الأسبابِ أبلغُ في الامـتـنـان وزجـرِ الغافلين

(النَّظرُ) في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ في الاعتبار، علاقتُه السَّبَبيّةُ، وهي أبلغُ مِنَ القول بالآليَّة، فالنَّظر سببُ الاعتبار، وترتُّبُ النَّظر الحقيقيِّ على السَّير المذكور ظاهرٌ، وهذا قرينةٌ أيضًا، وبلاغةُ التَّعبيرِ بالنَّظرِ بيانُ كمال إقامةِ الحُجَّةِ عليهم وتمامِها بذكر السّبب وإرادة المسبَّب؛ ووراءَ ذلكَ النَّعْيُ والإنكارُ عليهم حالَهم العجيب، وحثُّهُم على الاعْتِبارِ، وفي التّعبيرِ عنِ الاعتبارِ بـ(النّظر) إشارةٌ خفيّةٌ إلى نعمةِ الآلات التي

تمكِّنُهم منَ النَّظر والاعتبار، فلولا المُنعِمُ بالبصر والخالقُ للقوى والقُدَر ما نظروا، وبهذا تتحوّلُ نعمةُ النّظر إلى اعتبارٍ آخرَ يعِظُهم ويُنذِرُهم، كما يحتملُ النّظمُ إرادةَ الحقيقةِ منَ النّظر؛ فيكونُ كنايةً عنِ الاعتبارِ مع جوازِ إرادة المعنى الحقيقيِّ.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

مَـن سـارَ ولـم يعتبر فقد عَميَ ولم ينظُر

لمّا كانَ السَّيْرُ مُتجدِّدًا لهم في العامِ الواحدِ؛ كانَ النَّظرُ مُتجدِّدًا منهم أيضًا؛ فناسبَ التّعبيرُ عنه بصيغة المضارِع في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، والتَّجدُّدُ فيه ناظِرٌ إلى حصولِه في أوقاتٍ مختلفةٍ في الرِّحْلةِ الواحدةِ، وإلى تعدُّدِ المنظورِ فيه أوْ إليهِ مِن آثارِ السّابقينَ، ولمّا كانَ النَّظَرُ تعبيرًا عنِ الاعتبارِ كانَ ما قيلَ في التَّجدُّدِ صادِقًا عليهِ؛ أي: فيتسبَّبُ لهم عن ذلك السَّيْرِ أنَّه يتجدَّدُ لهم نظرٌ واعتبارٌ يومًا مِنَ الأيّام؛ فإنَّ العاقلَ مَن إذا رأى شيئًا تفكَّرَ فيه؛ حتَّى يعرفَ ما ينطقُ به لسانُ حالِه؛ إنْ خفيَ عنه ما جَرَى مِن مقالِه[1].

بلاغةُ الاستفهام وغرضُهُ:

الـقـرآنُ يُـحـرِّكُ الـغـافـلـيـنَ للتَّفْكيرِ في عاقبةِ الغابِرين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ أسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دون أنْ يقول: (فينظروا عاقبة الذين مِن قبلهم)، فأشار بأسلوبِ الاستفهامِ إلى أنَّه لعِظَمِه خرَج عن أمثالِه؛ فاسْتحَقَّ السُّؤالَ عن حالِه[2]، فهو استفهامٌ صوريٌّ المُرادُ منه التَّعْجيبُ مِن كيفيَّةِ عقاب اللّه للمجرمين[3]، وللتَّنبيه على أنَّ تلكَ العاقِبةَ مناطُ الاعتبارِ والاتِّعاظِ، ومحلُّ التَّهديدِ والوعيدِ؛ فينبغي على أهل الشِّرْكِ التَّنبُّهُ لها، والتَّفْكيرُ فيها، وأتى الاستفهام بـ﴿كَيْفَ﴾ التي يُسألُ بها عنِ الحال؛ لبيانِ أنَّ النّظرَ لا يهتمُّ بالعاقبة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 315.

لذاتها، بل لكيفيّةِ تلك العاقبةِ المأساويّةِ الَّتي حلّتْ بالمعذَّبين، حتى إنَّ تلك الكيفيّةَ صار يُسألُ عنها استغرابًا لشدَّتِها وقسوتِها.

دلالةُ استعمالِ فعل (الكونِ) مادَّةً وصيغةً:

إذا حلَّ العقابُ بالمكذِّبينَ فلن يُزفَّ عنهُم بدُعاءِ المُغرِقين

كانَ مِن عناصرِ الإبانةِ عمّا حَلَّ بالمُكذِّبينَ السّابقينَ ذكرُ فعلِ الكونِ ماضيًا في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، والتَّعبيرُ بفعلِ الكونِ يشيرُ إلى أنَّ العاقبةَ عندما حلَّتْ بهم لم تنفَكَّ عنهم كما لم تنفَكَّ الصِّفَةُ اللّازمةُ عنِ الموصوفِ؛ وأنَّى لهم الخلاصُ منها؛ وهم أهلُ الضَّعْفِ والهوانِ؟! ويلمحُ إلى التَّشاكُلِ والتَّوافُقِ بينَ العاقبةِ والمُعذَّبينَ؛ فهذه العاقبةُ مِن شأنِها أنْ تكونَ لهم، ومِن ديدِن أعمالهم، وإنّما نُظِم الكون فعلًا ماضيًا؛ لأنّه قد حصَل في الماضي وانتهَى، ففيه تنبيهٌ على أنَّه إنْ وقعَ أصبحَ المخاطَبون المعانِدونَ من الماضي كذلك.

نكتة تذْكيرِ فعل ﴿كَانَ﴾:

التَّنبيهُ على العذابِ وعظيمِ أَلمِهِ باعتبارِ مآله وشديدِ وقعِهِ

﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسْمُ ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾؛ وهو مؤنَّثٌ لفظيٌّ؛ فيجوزُ تذكيرُ الفعل وتأنيثُه؛ والنَّظم ذكَّرَ فعلَه؛ إشارةً إلى العذابِ الواقع عليهم، فذكر العاقبةَ وأرادَ بها العذابَ لعِظَمِها وفخامتِها وهَوْلِها؛ باعتبارِها محلَّ الاعتبارِ والاتِّعاظِ، ولأنَّها عاقبةُ قومٍ كانوا أشدَّ قوّةً مِنَ العربِ؛ فكان كفرُهُم أشدَّ مِن كفرِهم؛ فكانت عاقبةُ أمرِهم شيئًا عظيمًا في بابِه؛ وتذكيرُ العاقبةِ يُصَوِّرُ ذلكَ، كما أنَّ (العاقبة) مصدرٌ مأخوذٌ من وصفٍ هو (العاقب)، ودخلتْ عليه تاءُ التّأنيث للمبالغةِ في تصويرِ تلك العاقبةِ وشدّتِها وسوءِها.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ (العاقبة):

لفظُ العاقبةِ فيه تهديدٌ ووعيدٌ بقُربِ العاقبة

استعملَ النّظمُ الكريم مفردةَ (العاقبة) في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ دونَ مرادفاتها؛ تنبيهًا على قربِ وقوعِ العاقبة، وإشعارًا بأنَّها نتيجةٌ لذُنوبهم وآثامِهم، ولأنَّ هذا اللَّفظَ

المصدريّ يستدعي في الذِّهْنِ معنَى العقابِ، ويوحي بشدَّة ما كان منهم مِن ذُنوبٍ ومعصيةٍ؛ مِمّا اسْتَوْجَبَ لهُم العاقبةَ السيِّئةَ بكمالِ المصدرِ وحقيقتِه.

علَّةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

حلولُ العذابِ بالسّابقين دليلٌ على حلولِه في اللّاحقين

أُضيفَ لفظُ (العاقبة) إلى الاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ليشمل كلَّ مَن شملَتْهُ العقوبةُ بسببِ عدمِ الاتّعاظ، وتركِ مُتابعةِ الرُّسُل في دعوتِهم، وفي التّنصيصِ على القبليَّة استدلالٌ على إمكانيّةِ وقوعِ العذابِ بهم؛ إذ لا فرقَ بين السّابق واللّاحق إلّا بالتّوقيت، لكنَّ علّةَ العذابِ بالتّكذيب مشتركةٌ.

دلالةُ ذكْرِ ﴿مِن﴾:

ذُكِر حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّه لمّا كانت عواقبُ الدّمارِ في بعضِ ما مَضَى مِنَ الزَّمان أثبتَ الجارَّ ﴿مِن﴾[1]، أوْ لبيان أنَّ العاقبةَ تبتدئُ بالنّسبة للمخاطَبين من قبل زمانهم فرجوعًا إلى الزّمن الماضي، وهي على هذا ابتدائيّةٌ.

دلالةُ واوِ الحال:

(الواوُ) في صدرِ قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ للحالِ، أي: كان عاقبتُهم الاضمحلالَ؛ معَ أنَّهم أشدُّ قوّةً مِن هؤلاءِ؛ فيكون استئصالُ هؤلاءِ أقربَ، ولاستحضارِ قوّة السّابقين[2]، ولمّا تضمّنَ قوله ﴿يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دلالةَ التّدمير والاستئصالِ والعذاب، دفعَ بـ(الواو) الحاليّة توهُّمَ أنَّهم كانوا ضعفاءَ لا يتحمَّلون ما نزلَ بهم من خسفٍ ورَجفةٍ وصَيحة، فاحترسَ عن ذلك بالحالِ المصدَّر بـ(الواو) لدفعِ ذلك التّوهُّم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.

دلالةُ استعمالِ (الكونِ) مادَّةً وصيغةً:

جاء استعمالُ فعل الكون في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ القوّةَ الشَّديدةَ كانَت في طِباعِهم وجِبلّاتِهم، ومِن شأنِهم ودَيْدنِهم، ومعَ ذلكَ أتَتْ عليهم قدرةُ اللهِ، وأحاطَتْ بهم عاقبتُه، وقد تمكَّن مشركو العربِ مِن مُشاهدةِ آثارِهم التي تدلُّ على عظيمِ قوَّتِهم، وعَرَفوا مِنَ الأخبارِ والأنسابِ ذلك؛ ولذلك جاء الفعل بصيغة الماضي، وتناغمَ الفعل معَ ﴿كَانَ﴾ السّابقة في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ في رسمِ حالة متناقضةٍ بين الكونين، فكانوا أشدَّ قوّةً ومع ذلك انظروا كيفَ كان عاقبتُهم ومصيرُهم.

مَن كان دَيْدَنَه الاستكبارُ بقوّته فعذابُه نازلٌ بقوّته

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَشَدَّ﴾:

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ اسمَ التفضيل ﴿أَشَدَّ﴾ الواقعَ خبرَ الكونِ الماضي؛ وهو وصفٌ في المعنى لاسْمِه؛ وفي التَّعبير به بيانُ أنَّ لمشركي العربِ قوَّةً شديدةً مّا، وأنَّ هذه القوَّة مهما عظُمَتْ فلَنْ تكونَ كقوَّة الأوَّلين السّابقينَ عليهم، وأنَّ هؤلاءِ الَّذين مِن قبلِهم لمّا كذَّبوا الرُّسُل، وأصرّوا واستكبروا استكبارًا لم تُغْنِ عنهم قوَّتُهم التي هي أشدُّ مِن قوّةِ مشركي العربِ مِن عذابِ اللهِ شيئًا، وهذا كلُّه مُؤسَّسٌ على اتِّصافِ مشركي العرب بقوَّتَي الظّاهرِ؛ مِنَ الاستكبار، والباطنِ؛ مِنَ المكر الضّارِّ[1]، وإنَّما عبّر عنِ التّفضيل بلفظ (الأشدّيَّة) دون أن يقول: (وكانوا أقوى منهم)؛ للدّلالةِ على أنَّ المفاضلةَ في القوَّة الشّديدة دونَ مُطلقِ القوَّة، وفي الأشديَّة زيادةُ تصويرٍ للقوَّة كمًّا وكيفًا.

إهلاكُ الأقوى تنبيهٌ على يُسرِ إهلاكِ الأدْنى

نكتة القيدِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

أفاد القيدُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾؛ إبلاغًا في تقرير الأفضليَّة؛ بدعوتِهم إلى المقارنة بين قوَّتِهم وقوَّةِ مَن قبلَهم

التَّفكيرُ بالفروقِ بعقد المقارنة موصِلٌ للحقيقةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.

مِمَّن شاهدوا آثارَهم، وعلِموا أخبارَهم، وتمكينُ التّفضيل أدلُّ على التّهديد، وأدعَى إلى التَّفكيرِ في الحقِّ، والرُّجوعِ إليه، و(مِنْ) هنا للابتداء، ولم يُذكَر له انتهاءٌ؛ مبالغةً في تصوير القوَّةِ الشّديدة التي لا يُعلَمُ لها نهايةٌ، ومع ذلك فقد عُذِّبوا ونالهمُ الاستئصالُ.

توجيهُ تخصيصِ الأَشديَّة بالقوَّةِ:

مِن شأنِ معرفةِ شـــدّةِ قــوّةِ الهالكين الاعتبارُ بقوّة عـذابِ ربِّ العالمين

اقتَصَرتِ الآيةُ على جملةِ الحالِ في الحديثِ عنِ السّابقين بقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ والحالُ وصفٌ في المعنى لصاحبِه؛ إيثارًا للإيجازِ؛ لاقترابِ خَتْمِ السّورةِ؛ ولذلك لم يُؤْتَ في نظائرِها بجملةِ الحال، ولكن أُتيَ فيها بجملة وصفٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿*أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: 21]، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: 9]؛ حيثُ أوثِر في مِثْلِ ذلك الإطنابُ؛ بتَعْدادِ بعضِ مظاهرِ تلك القوَّة[1]، ولعلَّ في ذلكَ الاقتصارِ دعْوَةً للمشركينَ إلى التَّفكُّرِ في أحْوالِ السّابقينَ وأوصافِهم العديدةِ؛ وأراد أنْ يُحيلَهُم إلى عمومِ أوصافِهم؛ ليتمكَّنَ فيهم معنَى كمالِ اقتدارِ اللّهِ عليهم، وكمالِ ضعفهم وعجزِهم في مواجهةِ القُدْرَةِ الإلهيَّة، وهذا أقربُ إلى ظاهرِ التَّرهيبِ، وباطنِ التَّرغيبِ؛ تمهيدًا لآيةِ الإمهالِ الَّذي هو مِن رحمة اللّه بهم؛ وتلك آخِرُ آيةٍ في السّورة.

بلاغةُ العطفِ بالواو:

معـاني الجُمَلِ آخِــذٌ بعضُـها بأعناقِ بعضٍ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: عاطِفةٌ لجملةِ النَّفي هذهِ على جملةِ الحالِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾؛ والمعطوفُ على الحالِ حالٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.

أي: أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم؛ والحالُ أنَّ اللهَ لا يُعْجِزُه أمْرُ أُمَّةٍ كذَّبَت رسولَها أوْ أمْرُ أحدٍ منهم كذَّبَه؛ فهذه الحالُ تُقرِّرُ وتُحقِّقُ قولَه تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ لأنَّه تعالى إذا كان لم يُعجزهُ شيءٌ عن تحقيقِ مُرادِه كان عاقبةُ الَّذين من قبلهم قد تحقَّقَتْ.

فنُّ الاحتراسِ:

لمّا بيَّن سبحانه حالَ الهالكينَ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ ناسبَ أنْ يعطفَ عليه جملةَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للاحتراسِ منِ أنْ يطْمَعَ مشركو العربِ وأمثالُهُم في النِّجاةِ من مِثْلِ عذابِهم؛ بعلَّة أنَّ لهم منَ المُنْجيات ما لم يكُن للأُمَم الخاليةِ؛ كزعمِهم أنَّ لهم آلهةً تمنعُهُم من عذابِ اللهِ؛ بشفاعتِها، أوْ دَفْعِها؛ فقيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: هَبْكُم أقوَى منَ الأوَّلينَ وأشدَّ حيلةً منهم، أوْ لكم منَ الأنصارِ ما ليس لهم: فما أنتُم بمُفْلتين من عذابِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[1].

مباغتةُ القومِ بردِّ الأوهامِ مُعينٌ على تَقويةِ الأفْهامِ

دلالةُ ذِكْرِ نفيِ الكَوْنِ الماضي:

عُبِّر عنِ الكونِ المنفيِّ بأداة (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾؛ للدّلالةِ على الألوهيَّةِ بالنَّفي المذكورِ، والمعنى: ليس من شأنِ اللهِ تعالى أنْ يُعْجِزَه شيءٌ في السّماوات والأرض، وفي هذا تعريفُهُم باللهِ من جهةٍ، وإبلاغٌ في ترهيبِهم وتهديدِهم من جهةٍ أخرى؛ لأنَّ فيه إبلاغًا في تقريرِ النَّفْيِ المذكور.

رحمةُ اللهِ تعالى لا تَحولُ دون وقوعِ عذابِه

علَّةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالة:

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في جملة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾؛ لتحقيقِ النَّفي؛ بذِكْرِ الاسْمِ الجامعِ لمعاني

اسمُ الجلالةِ هو الألصقُ بغرضِ التَّعريفِ بقُدْرةِ اللهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338 - 339.

الأسماءِ والصِّفاتِ؛ نظَرًا إلى نفسيّات المشركينَ التي تُنكِرُ بلسانِ حالها قبلَ لسانِ مقالِها مَضمونَ النَّفْيِ، ولتعلُّق معنى النَّفي بالألوهيَّةِ وعدمِها؛ فإنَّ الذي يُعجزه شيءٌ عن تحقيق مرادِه ليس بإله، ومَن لا يُعْجِزُه شيءٌ عن ذلك مطلقًا فهو الإلهُ الحقُّ؛ فعُبِّر باسْمِ الجلالةِ الَّذي لم يُطْلَق على غير الله تعالى، لتوكيدِ خصوصيَّة هذا الأمرِ به ﷻ دونَ سِواه.

دلالةُ لامِ الجُحودِ:

القرآنُ يواجِهُ كلَّ إنكارِ المشركين بتأكيدٍ عَالٍ بليغٍ

استعملَ النّظمُ الكريم (لامَ الجُحودِ) مع كانَ المنفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾؛ لإفادة تأكيدِ نفي كلِّ شيء يَحولُ دونَ قدرةِ اللهِ وإرادتِه؛ مراعاةً لتكذيب الكَفَرةِ في قَطعِهم بأنَّ دينَهُم لا يتغيَّرُ، وأنَّهم لا يُغْلبون أبدًا؛ لِما لهم مِنَ الكثرة والمُكْنة، وما للمسلمين مِنَ القِلَّة والضَّعْف[1].

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ العجزِ:

نفيُ المُسبَّبِ بنفي السَّبَبِ أبلغُ مِن نفي المُسبَّبِ مباشرةً

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ (العجز) في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾؛ لأنَّه أبلغُ مِن ذكرِ الضَّعْفِ في نفْيه عنِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ معَ العجز ينتفي الحَزْمُ، والعجزُ نَتاجُ عدمِ القدرةِ، فيدلُّ على الضَّعْفِ، لا أنَّه نتاجُ الضَّعْفِ، فالعجزُ فيه معنى الضَّعْفِ، وليس مقابلًا له، وإنّما يُقابِلُه عدمُ القدرةِ، وجهاتُ الضَّعْفِ وعدمِ القدرة مع العجزِ في الإنسانِ أكثرُ منها مع الضَّعْفِ فيه؛ بشاهدِ استعمالاتِ العجزِ في اللُّغةِ، وكلامُ المفسِّرينَ يُفْهِمُ أنَّ العجز هنا مجاز مرسلٌ علاقتُه السَّببيَّةُ؛ وإن لم يُصرِّحوا بذلك؛ فقد فسَّروه بـ: ليَسْبِقَه ويَفوتَه مِن شيء، فيفلتَ عن مراد الله منه[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 444، والزمخشري، الكشاف: 12/ 672، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 207، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

دلالةُ ذكرِ حرفِ ﴿مِن﴾:

توكيدُ المعاني في سياقِ العُمومِ يـدفـعُ مِـظـنَّـة الفهوم

كلمةُ: ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٍ﴾ فاعلٌ، وهو نكرةٌ، والنَّكرةُ في سياقِ النَّفي تدلُّ على العموم، والأصلُ فيه أنْ يكونَ مرفوعًا لفظًا، ولكِنْ دخلَتْ عليه: ﴿مِن﴾ الزّائدةُ؛ فجاءَتْ لتأكيدِ النَّفي؛ فالنَّفيُ مُتأكِّدٌ بنفي الكونِ الماضي، ولامِ الجُحود، والنَّكرةِ، ثم لمّا دخلَت ﴿مِن﴾ عليه دلَّتْ على استغراقِ الأشياءِ؛ وهذا في الحقيقة إبلاغٌ في إقامة الحُجَّةِ على أهل الشِّرْكِ والكفرِ؛ ببيانِ اتّساعِ محلِّ النَّظَرِ والتَّفكُّرِ والمقارنةِ والاستدلالِ.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في قوله: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للعهد الذِّهْني أوِ الذِّكريِّ؛ حيثُ ذُكِرتا في السّياق السّابق، ولو حمَلَهُما المُتلقّي على العهد الذِّهْنيِّ فإنّهما تستدعيانِ المعانيَ نفسَها.

نكتةُ الجمعِ والإفرادِ:

سبحانَ مَـن لا يُعجِزُه شيءٌ في الأماكنِ كلِّها

جاءَ التّعبيرُ بجَمْعَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ باعتبارِ أنَّ هذا هو أسلوبُ القرآن عمومًا في ذكرهما، كما أنَّ الجمع والإفراد مناسِبٌ للسّياق، ففيه إثباتُ القدرةِ بنَفْيِ عَجْزه سُبحانه عن أيِّ شيءٍ في السّماوات على كثرتها وعلوِّ مكانها التي لا تبلُغُها قدراتُ البشر، والأرضِ التي يعيشونَ عليها، ولا يُحيطونَ بها.

نكتةُ تَكرارِ حرفِ النّفي:

حـسـاسـيّـةُ الـسّـيـاق تـقـتـضي تَـكـرارَ النّـفي لترسيخ استقلالِ المعاني

لمّا كانتِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفةً على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وكان المعطوفُ عليه في سياقِ الكونِ المنفيِّ؛ فيأخذُ المعطوفُ حكمَه، لكنَّ النّظم آثر ذكرَ حرف النّفي (لا) في خصوص ذكر الأرض، فلم يقل: (في

السَّماوات والأرض)؛ فقال: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ إرشادًا للمُتلقّينَ إلى النَّظَرِ والتَّفكيرِ في كلٍّ مِنَ السَّماواتِ والأرضِ على جهةِ الاستقلالِ؛ ليَقِفَ بقوَّةٍ على صحَّةِ النَّفي وما تحتَهُ مِن معانٍ ومقاصدَ؛ فأكَّد بإعادة النّافي[1]، فتَكرارُ معنى النَّفْي يتناغَى مع جمع السَّماء وإفرادِ الأرضِ، وذلك أنَّ السّياقَ في نفْيِ عَجْزه ﷻ، فكانَ تَكرارُ حرفِ النَّفي فيه مزيدُ توكيد، ليقومَ كلٌّ منَ السَّماوات والأرض مقامَ الاستقلال في النّفي، وهذا أرسخُ في إثباتِ القُدرة، ومدحِ القَدير.

نُكْتَةُ استعمالِ حرف الظَّرفيّة:

اختلافُ ظرفيَّة السَّماوات عن ظرفيّة الأرض يَجعلُهما كالمتُباينَين

مِن مقتضَياتِ التَّعاطُفِ بينَ السَّماواتِ والأرضِ أن يأخذ المعطوفُ حكمَ المعطوف عليه، لكنَّ النَّظم آثر ذكرَ حرف الظّرفيّة قبل كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فقال: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادة الفرقِ بينَ ظرفيّة السّماوات وظرفيَّة الأرض، فكلٌّ منهما له استقلالٌ بظرفيّته، وكونُ الحرف مشتركًا في الجهتين، لكنَّ دلالتَه مُختلفة، فما في السَّماوات والقدرةِ عليه، يختلفُ عنِ الَّذي في الأرض والقدرةِ عليه، واللّه ﷻ قد أحاطتْ قدرتُهُ بكلِّ شيءٍ.

علَّةُ الفَصْلِ ودلالتُه:

مَن تأمَّلَ حالَ اللهِ معَ خلْقه تعرَّفَ عليه في قلبِه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ تعليلٌ في المعنى لجملة النَّفي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ "بأنَّ اللّه شديدُ العلم واسعُه، لا يخفَى عليه شيءٌ، وبأنَّه شديدُ القدرةِ"[2]، ويجوزُ أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا؛ على تقديرِ سؤالٍ عن علَّة النَّفي؛ على معنى إرشادِ المُتلقّين إلى ذلك؛ للتَّعرُّف عليه ﷻ، وهذا أليقُ بخطابِ المشركين، ويجوز أنْ تكون لما بينَ هذه الجملةِ وجملةِ النَّفي مِن كمال الاتِّصالِ؛ لأنَّ الثّانيةَ منهما تُحقِّقُ الأولى وتؤكِّدُها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

في لُطْفٍ؛ لأنَّ معنى كلٍّ منهما يلزمُ معنى الأخرى؛ وإنْ كانتِ الثّانيةُ بمثابة الأُمِّ للأولى؛ لأنّها أوسعُ منها.

سِرُّ التَّوكيدِ:

تـوكـيـدُ المـبـاني لتثبيتِ المعاني

نُظِمتْ هذه الجملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ)، ليلفتَ النَّظرَ إلى عِظَمِ معنى الجملةِ وشديدِ قيمتِه وأهميَّتِه وخطَرِه بالنِّسْبةِ للمشركينَ مِنَ المُتلقّينَ خصوصًا، ولمّا لم يعتبرِ المخاطَبون المشركونَ - على تقدير ثبوتِ سيرِهم في الأرضِ - مِن آثارِ السّابقينَ كانوا كالمُنْكِرينَ لكونِه تعالى عليمًا قديرًا، فأُكِّد لهم الخبرُ لذلكَ.

نكتةُ ذِكْرِ فِعْلِ الكَوْنِ:

عـلـمُـه تـعـالى وقـــدرتُـــهُ لا يحدُّهما الزّمانُ ولا ينحصرُ بهما المكان

آثرَ النّظمُ الكريم ذكرَ فعل الكون؛ فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾؛ للدّلالةِ على الألوهيَّة بالعلم والقدرة المذكورَيْنِ؛ أي: إنَّ مِن شأنِه تعالى هذا العلمَ وهذه القدرةَ؛ فهو عليمٌ قديرٌ أزَلًا وأبَدًا؛ تناسُبًا مع الدَّعوةِ إلى الاعتبارِ بأحوالِ السّابقين وآثارِهم، والتَّعرُّفِ على اللّه مِن خلالِها؛ فحالُهُم يدلُّ على هاتين الصِّفتين، والفعلُ إذا أُسْنِد إلى اللّه تجرَّدَ مِنَ الزَّمان، أي: كان كذلك ولا يزالُ دائمًا وأبدًا.

بلاغةُ تشابُهِ الأطرافِ:

العلمُ والقدرةُ دلـيـلُ نـفـي العجزِ عن بلوغِ المقصودِ وتحقيقِ المطلوبِ

التَّناسُبُ بينَ إثباتِ العِلْمِ والقُدْرةِ وبينَ نفي العجزِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾: ظاهرٌ قويٌّ؛ لأنَّ معَ العِلْمِ والقدرةِ لا يتعذَّرُ شيءٌ؛ لأنَّ عجْزَ المُريدِ عن تحقيق إرادتِه إمّا أنْ يكون سببُه خفاءَ موضعِ تحقُّقِ الإرادةِ، وهذا يُنافي إحاطةَ العلم، وإمّا أن يكونَ سببُه عدمَ استطاعة التَّمكُّنِ منه، وهذا يُنافي عمومَ القدرةِ، ثم قولُه: ﴿عَلِيمًا﴾ يُنبِّه على أنّه تعالى علِمَ بجميع أعمالهم السَّيِّئةِ، وقولُه: ﴿قَدِيرًا﴾ يشيرُ إلى أنَّه سبحانه عاقبَهُم، وظهَر في

عاقبتهم قدرتُه تعالى[1]؛ فقد خُتِم الكلامُ بما يُناسِبُ أوَّلَه في المعنَى؛ وهذا ما يُسَمَّى بـ(تشابُه الأطراف).

دلالةُ الصّفةِ المشبّهةِ:

نُظِم الاسمانِ العظيمانِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ بصيغة: (فعيل)؛ وهي صفةٌ مشبّهة دالّةٌ على الثّبوتِ والدّوامِ والشّمول؛ تنبيهًا على أنَّ علمه تعالى فوقَ كلِّ علمٍ، فهو العلم الشّاملُ، وأنَّ قدرتَه سبحانه فوقَ كلِّ قدرةٍ؛ فقدرتُه هي الكاملةُ التّامَّةُ؛ والأفرادُ المتعلِّقةُ بعلمه وقدرتِه لا تَكادُ تُعدُّ ولا تُحْصَى؛ مشاكلةً لسياقِ ذِكْرِ شدَّة قوَّةِ أهلِ الشِّركِ مِنَ العربِ ومِمَّن كانوا مِن قبلِهم.

الثّبوتُ والدّوامُ في الوصفِ يقرّبُ حقيقةَ معناه للمُتلقّينَ

نكتةُ ترتيبِ وصْفَيِ العلْمِ والقُدرة:

جَرَى ترتيبُ الوصفيْنِ الجليليْنِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾؛ على جهة التَّهديدِ والتَّرهيبِ مِن كُفْرِ المُشركين وشركِهم، وما يسْتَتْبِعُ ذلك مِنَ الآثامِ والمعاصي؛ فقولُه: ﴿عَلِيمًا﴾ يشيرُ إلى أعمالهم السّيئة التي تتعلَّقُ بعلمِه تعالى، ومجيءُ قولِه: ﴿قَدِيرًا﴾ بعدَه يشيرُ إلى أنَّ أعمالَهُم سببٌ في عذابهم وعاقبتِهم التي تتعلَّق بالقدرة، ويظهر فيها كمالُ اقتدار اللّه عليهم.

استحضارُ حالَهُم في نَظْمِ بعضِ أوصافِه؛ إحسانًا إليهم

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّير والمشي والسَّعي:

(السَّيْرُ) تدورُ مادَّتُه على مُضيٍّ وجَرَيانٍ؛ يُقال: سار يسيرُ سيْرًا؛ وذلك يكونُ ليلًا ونهارًا، ويُلاحَظُ فيه معنى التَّوغُّلِ والامتدادِ، وأمّا (السَّعْيُ) فمِن قولِهم: مَضَى سَعْوٌ مِنَ اللَّيل، أي: قِطْعٌ منه، ففي السَّعْي معنى السُّرْعةِ التي يَستدعيها داعٍ مُهِمٌّ؛ ولهذا قيل فيه: السَّعْيُ هو المشيُ السَّريعُ؛ وهو دونَ العَدْوِ؛ ويُستعمَل للجِدِّ في الأمرِ؛

المشيُ أعَمُّ مِنَ السَّيْرِ والسَّعْي

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 444، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 482، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

خيرًا كان أو شرًّا، وأمّا (المَشْيُ) فهو أعَمُّ منهما؛ لأنَّه يدلُّ على حركة الإنسان وغيرِه؛ فهو قابلٌ لأنْ يكونَ سيرًا وسعيًا؛ ولأنَّه يدلُّ أيضًا على النَّماءِ والزّيادة؛ مِن ذلك المَشاء؛ وهو النِّتاج الكثير، وبه سُمّيت الماشية، وامرأة ماشيةٌ: كثُر ولدُها، وأمْشَى الرَّجُلُ الرّجُلُ: كثُرت ماشيتُه[1].

النّظرُ والرُّؤيةُ والتّدبُّر والتَّفكُّر والتّأمُّل:

للنَّظَرِ أحوالٌ؛ فهو أصلُ المعاني المُقاربةِ له، وهو أعمُّ منها

(النَّظَرُ): طلبُ الهُدَى، والشّاهدُ قولُهم: نظرتُ فلم أرَ شيئًا، والنَّظرُ طلبُ ظهورِ الشّيءِ، والنّاظِرُ الطّالِبُ لظهورِ الشيء، والنَّظرُ بالقلب مِن جهة التَّفكُّر، والنَّظرُ أيضًا هو الفكرُ والتَّأمُّلُ لأحوالِ الأشياءِ؛ ألا ترى أنَّ النّاظر على هذا الوجه لا بُدَّ أنْ يكون مُفكّرًا، والمُفكِّرُ على هذا الوجهِ يكونُ ناظرًا، وهو معنى غيرِ النّاظر وغير المنظور فيه؛ ألا ترى أنَّ الإنسان يفصلُ بين كونِه ناظرًا وكونِه غيرَ ناظرٍ، والنَّظرُ: طلبُ معرفة الشّيءِ مِن جهة ومِن جهة غيرِه، وحدُّه: طلبُ إدراك الشّيء مِن جهة البصر أوِ الفكر، ويحتاج في إدراك المعنى إلى الأمرَيْن جميعًا.

والرُّؤْيةُ: هي إدراكُ المرئيّ، ولمّا كان اللّه تعالى يرى الأشياءَ مِن حيث لا يَطلبُ رؤيتَها صحَّ أنَّه لا يوصَفُ بالنَّظرِ، والتَّدبُّرُ: تصرُّفُ القلبِ بالنَّظر في عواقبِ الأمور، والتَّفكُّرُ: تصرُّفُ القلب بالنَّظر في الدّلائلِ، والتَّأمُّلُ: هو النَّظرُ المُؤَمَّلُ به معرفةُ ما يُطْلَبُ، ولا يكونُ إلّا في طولِ مُدَّةٍ؛ فكلُّ تأمُّلٍ نظرٌ، وليس كلُّ نظرٍ تأمُّلًا[2].

العاقبةُ والخاتمةُ والنِّهايةُ:

العاقبةُ أخَصُّ مِنَ الخاتمةِ والنِّهايَةِ

(عاقبةُ) كلِّ شيءٍ آخِرُه؛ وملاحظةُ استعمالاتِ هذا الأصل يُلْحَظُ أنَّ إتيانَ الشّيء بعد الشّيء هنا يكونُ على جهةِ التُّلوِّ، وأنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعى)، (سير)، (مشى)، والراغب، المفردات: (سعى)، (سار).
(2) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 94، 121، و 542 - 544.

الثّانيَ كأنَّه بسببٍ مِنَ الأوَّلِ، وكأنَّه نتيجةٌ له، ويقولون: ستَجِدُ عَقِبَ الأمر كخيرٍ أو شرٍّ؛ وهو العاقبةُ، و(الختام والخاتمة): بلوغُ آخِرِ الشّيءِ؛ يُقال: ختمتُ العملَ، وختَم القارئُ السّورةَ؛ فليس فيه معنى التُّلوِّ ولا التَّقارُبِ بينَ الشّيئَيْنِ كما في العاقبةِ؛ فالخاتمةُ أعمُّ مِنَ العاقبةِ، و(النِّهايةُ): مصدرٌ، مثلُ الحِماية والكِفاية، إلّا أنَّه سُمّي به منقطَعُ الشّيء، فقيل: هو نِهايتُه، أي: منتهاه، وخلافُ المنتهَى المُبتدأ؛ فكما أنَّ قولَك: (المبتدأ) يقتضي ابتداءَ فعلٍ مِن جهة اللَّفظ، وقدِ انتهَى الشّيءُ؛ إذا بلَغ مبلغًا لا يُزاد عليه، وليس يقتضي النِّهاية مُنتهًى إليه، ولوِ اقتَضَى ذلك لم يصِحَّ أنْ يُقال: للعالَم نهاية[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ختم)، (عقب)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 5، والراغب، المفردات: (عقب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»